الفصل الخامس

إنسَان القُرآن
من خلال أبعادِه الاجتماعيّة

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

انسان القرآن من خلال أبعاده الاجتماعية

لقد جاء القرآن بمبادىء ، وقواعد ، ومفاهيم ، لا تقل روعتها الاجتماعية عن روعتها الروحية والفلسفية . لقد شرع القرآن للإنسان اجتماعياً ، شرع له على مستوى الأسرة ، والجماعة ، والمجتمع العام SOCIETE GLOBALE نعنى به الدولة على (سبيل المثال) محدداً له أسساً عامة لسلوكه الجماعى ، وتنشئته ، وتدرجه ، وعلاقاته الاجتماعية ، بما فيه صلاحه ونجاحه ورفعته ، معللا لذلك فى كثير من الأحيان ، تعليلا واقعياً، عملياً ملموساً . ولكى نبرز أصالة (سوسيولوجية) أو اجتماعية إنسان القرآن لابد لنا من تحديد أبعادها على ضوء المقارنة باجتماعية إنسان ما قبل القرآن فى الجاهلية ومعطياته الانثربولوجية أولا ، وعلى ضوء المقارنة باجتماعية إنسان الأديان الأخرى ثانياً . ونظراً لضيق إطار هذا العرض ، نقتصر فى مقارنتنا على بعض النماذج المحددة ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر . إلا أن هذه المقارنة ستدفعنا بدورها إلى تحفظ تمهيدى ، خاص بمدى علاقة تصوير إنسان القرآن بالبيئة التى نزل فيها هذا الكتاب المقدس. لقد حاول بعض عشاق اللغو من المستشرقين (مع اعتزازنا العميق بمن صدق، وأخلص القول من بقيتهم) أن يقدموا القرآن، وذلك لحاجة كنسية أو مغرضة فى نفس يعقوب ، كصدى ، لبيئته ، وكمترتب عليها ، وكتطور طبيعى لحدثها الاجتماعى ، على سبيل المثال نذكر من هؤلاء : محمد حياته ومذهبه لتور أندريا(١) ، المدخل لسوسيولوجية الإسلام لشلحود(٢) .

---

(١) Tor Andrae, Mahomet, sa vie et sa doctrine (Trad. Fran :- Paris. 1945).

(٢) Chelhod (J.). Introduction à la Sociologie de l'Islam, de l'aminisme à l'universalisme, Paris 1958.

وكذا المدخل لسوسيولوجية الإسلام د . ليفى(١) وخصوصاً « القس لامناص » الذى وضع دراسات عدة عن البيئة الاجتماعية عشية ظهور الإسلام ، لنفس الغرض ، أى للتدليل بشكل غير مباشر على سلبية أصالة القرآن الروحية ، ففشلوا فى الهدفين. فشلوا فى الهدف الأول . إذ لو أن القـــرآن جاء صدى تلقائياً وحدثياً ، لدعم ديالكتيكياً أيلولة متناقضات قيم إنسان الجزيرة ، فزكى روح الذاتية ، والنعرة، والاعتزاز بعصبيته زكى نزعاته ، ومواقفه ، واتجاهاته ، بمعنى أصل الظاهرات الانتربولوجية والاجتماعية الموجودة آنذاك بطريقة ما ، ولـكن العكس ، القرآن تحفظ عليها ، وفى كثير من الأحيان عارضها ، وفندها ، فى شكل إنسانى سامى يفوق قمة ما وصلت إليه الوحدات الحضرية المعاصرة فكرياً، فى تطورها الاجتماعى ، لدى عواصم إمبراطوريات القرون الوسطى . وفشلوا أيضاً ، وبالتالى ، فى الهدف الثانى ، وهو التدليل بشكل غير مباشر عبر هذا الطريق ، على سلبية أصالة القرآن الروحية . إذ أنه يمكننا أن نتكلم عن الأصالة الاجتماعية فى الرسالة القرآنية بما يؤكد الأصالة الروحية ، ويدعمها بفضل طبيعة القرآن المميزة ، وتفوقه اجتماعياً على جميع التشريعات البشرية المعاصرة ،وسأترك هذه النقطة الدقيقة لأوجست كونت (أحد مؤسسى السوسيولوجيا وهو الوضعى الغير ملتزم روحياً) ليعرف بها فى نهاية هذا العرض ، ولا نقف بتحفظنا هذا ، عند هؤلاء المستشرقين من عشاق اللغو ، والحلول الوصولية السهلة ، بالنسبة لأقدس معطيات الإنسان ، بل نتجاوزهم إلى النقيض ، هذا النقيض نعنى به جماعة المتحمسين لأصالة روحانية القرآن لا عن طريق البحث العلمى الرصين ، ولكن عن طريق اللغط ، والتعبئة الكلامية العاطفية والانفعال الإبداعى ، فيبتروا فى شكل متسرع ، متهور ، معارض لروح القرآن نفسه ، اجتماعية إنسان ما قبل القرآن وأصالته الانتربولوجية عن اجتماعية إنسان

Levy (R.) an introduction to the Sociology of Islam, (١) London 1931 2 vol.

obeikandi.com

القرآن ، وذلك حين يصفون مجتمعات ما قبل القرآن بالفطرية والبدائية، بل وبالهمجية على سبيل التعميم ... الخ،مع أن القرآن نفسه أكد استمرارية إنسانية الإنسان ، واجتماعيته . كذلك لا يمكننا أن نتصور رسول القرآن نشأ فى بيئة هذه معطياتها . القرآن عبر قصص الأنبياء أكد وجود نماذج إنسانية صالحة اجتماعياً ، وأبقى على الخير منها وأجازه ، وأعطى لرسالته بالتالى طبيعة تكميل وتكامل مع سبق ، وسد القصور ، ليصل إلى الإنسان الأكثر كمالا ، فى مجتمع أكثر كمالا ، وعليه ، وعلى ضوء هذا التحفظ يمكننا أن نجمل : إن إنسان القرآن اجتماعياً جاء نموذجاً مستوعباً لما صلح من ماضى الإنسان،متجهاً به إلى الكمال فى التشريع بما يتمشى ، ومتطلبات الحياة الاجتماعية المتجددة ، نموذجاً خرج بالإنسان من نمط المجتمعات المحلية ، إلى نمط المجتمع العالمى ، شرع « للإنسان الشامل » فى كل زمان ومكان ، تاركاً لمبادئه أبعاداً مرنة ، مبسطة ، هى مصدر قوته الاجتماعية، وأصالته التشريعية تعتمد على التعليل للظاهرة ، والتخريج لها أكثر مالعتمد على الالتزام الملقن ، والحتمية المجردة ، وقف القرآن فى تصويره للإنسان اجتماعياً موقفاً وسطاً بين « الحتمية السوسيولوجية» وبين «الحرية الإنسانية» فكان فى ذلك خير تشريع جسد الحقيقية الاجتماعية للانسان فى شكل واقعى ملموس ، مؤكداً معالم « قارية المجتمع » و « مظاهر حركيته » عبر روح عملية رائعة .

وما علينا إلا أن نتدبر فيما جاء به القرآن الكريم من مبادىء تحدد مدلول الطبيعة الاجتماعية البناءة للانسان ، وتكيفها سواء على مستوى الأسرة أو الجماعة ، والمجتمع العام (نعنى به هنا الأمة ، أو الدولة ، أى تاج التجمعات وأعمها زمانياً ومكانياً) .

بالنسبة للأسرة أجاز القرآن ما هو صالح من قواعدالسلوك والعلاقة، وعالج ما يمكن إصلاحه بشكل واقعى عملى ، وردع ما هو غير قابل للإصلاح دون تردد أو مراوغة ، تمثلا من نماذج البنيان الاجتماعى للأسرة وأنواع الزواج الموجودة فى الجاهلية بمرحلتها ، وقد عد من هذه النماذج

عالم الأنتربولوجيا السامية: روبيرتسن سميث «الصداقة والزواج فى الجاهلية»(١) ما يقرب من عشرة: زواج الشغار، الاستبضاع، الرهط، المؤاجرة، المشاركة ... الخ، أجاز القرآن فقط الزواج الصالح منها، وأعطى له أسساً رصينة تضمن استمرارية الإنسانية فى شكل صافى نظيف، لم يعد الزواج لمجرد اشباع شهوة، أو رغبة، أو تكاثر فى الأولاد، دون تحمل المسئوليات المترتبة عليه، وإنما أصبح زواج الحقوق والواجبات بالنسبة للرجل والمرأة على حد سواء، بشهادة من الله ورسوله، ثم عالج القرآن ما يمكن إصلاحه من نماذج أخرى كان من الصعب بترها لشيوعها وعموميتها ولأسباب أخرى، دون أن يحدث العكس. وهو اهتزاز بنية المجتمع برمته، نعنى على سبيل المثال نموذج تعدد الزوجات، فالقرآن كى يختار بين اهتزاز المجتمع برمته، حين بتر إحدى دعاماته الحركية آنذاك، وبين الحد من حركية هذه الدعامة وحصرها توطئة لإذابتها تدريجياً دون ردود عكسية، اختار الحل الثانى، فكان فى ذلك سوسيولوجيا فى نهجه ومن المسلم به كذلك، أن تعدد الزوجات عرفته المجتمعات كظاهرة عامة حركية بما فى ذلك المجتمع المسيحى، وما علينا إلا أن نراجع مؤرخ العصور الوسطى الكبير: هالن فى مؤلفه «أوروبا خلال العصور الوسطى»(٢) حيث أكد أن تعدد الزوجات كان مباحاً عند المسيحيين، وكذلك الرق أيضاً، بل وقد تحمست له الكنيسة ضمنياً فى كثير من المناسبات، بينما لا نجد فى القرآن الكريم آية واحدة تدعو إلى استرقاق الأحرار، بل كل آياته تدعو إلى تحرير المسترقين.

أما بالنسبة لموقف القرآن مما فيه خطر على الأسرة، وبنيانها. واستمرارها فكان موقف الرادع المحذر دون تردد. موقفه من وأد البنات،

---

(١) لمن يريد المراجعة:
Smith (W.R.), Kinship and marriage in Early Arabia, 1885.

(٢) Halaln, Europ during the middle ages vol. I p. 45.

من الزنى « ولا تقربوا الزنى » (١) الآية « لفروجهم حافظون » (٢)... الآية ،وموقفه من رمى المحصنات ،وشيوع الفاحشة وخطر ذلك على الأمة برمتها « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا »(٣) الآية حتى مظاهر السلوك فى الأسرة وآدابه ، وما يسير الأسرة من علاقات حدد القرآن مبادئ سامية له « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ... »(٤) الآية ،وما ورد من آيات أخرى فى سورة الحجرات ، وقوله « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » (٥)... وما تلا ذلك من آيات تمثل أروع قواعد السلوك ، وقوله « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون وقـل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن » . . . . الآية (٦) . وقوله : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن » . . . (٧) الآية ، وقوله : « لا يسخر قوم من قوم » . . . (٨) الآية ، وقوله : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه » . . . (٩) الآية ، ولعل أروع ما جاء من مبادىء اجتماعية فى القرآن ، خاصاً بالأسرة ، مبدأ تحمل مسئولية قيادة الأسرة ، فالأسرة كلى تجمع لا بد لها من رائد يتحمل المسئولية ، قد سلمنا بذلك فى الجيوش ، فى القوافل ، فى المراكب ، فى الدول ، فى الادارات ، ولا نسلم به فى الأسرة ليكون لها رائد قوام ، ومن هنا يكون الفهم السليم للآية : « الرجال قوامون على النساء »(١٠) هو قوام رائد ، وليس بمتسلط جبار على المرأة ، ولو أراد القرآن ذلك لقال : الرجال أسياد على النساء ، وإنما قال « الرجال قوامون » (هنا مع اعتزارنا بالتفسيرات الأخرى) ، لم يقف القرآن بالإنسان اجتماعياً عند تحديد علاقته وسلوكه فى الأسرة فقط ، بل تجاوزها إلى الجماعة والمجتمع العام ، فأعطى أساساً

---

(١) الاسراء : ٣٢
(٢) المؤمنون : ٥
(٣) النور : ١٩
(٤) النور : ٢٧
(٥) الاسراء : ٢٣
(٦) النور : ٣٠ ، ٣١
(٧) الحجرات : ١٢
(٨) الحجرات : ١١
(٩) القصص : ٥٥ .
(١٠) النساء : ٣٤

للعلاقات الناجحة والسلوك الحسن بما يساعد على تدعيم المجتمع وتفضيله وحدد الآفات الاجتماعية التى تسمم العلاقات ، وتفسدها ، وتسىء إلى السلوك وتخلله ، ما علينا إلا أن نطالع الآيات البينات قوله « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً ، وقال إننى من المسلمين . ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم »(١) وقوله » « وجادلهم بالتى هى أحسن » (٢) وقوله : «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » (٣) وقوله « ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » (٤) وقوله « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر» (٥) وقوله : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » (٦) وقوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » (٧) وقوله « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » (٨) وقوله « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول »(٩)وقوله «لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »(١٠) وقوله « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » (١١) وقوله « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم »(١٢)وما علينا إلا أن نتأمل وقد يطول بنا الاستشهاد،لو أحصينا فى القرآن من روائع ، تحدد قواعد السلوك الصحيح ، ومبادىء كل ما ورد العلاقات السلمية ، التى تعتمد على حسن المعاملة،إنسان القرآن كما صوره اجتماعياً ، إنسان سمح متسامح مون متوازن،متطلع نشط ،عامل مجتهد، صادق الوعد مع غيره ، نزيه لا يكره ولا يحسد ، ولا يغتاب ، ولا ينافق ولا يرتاب ، شعاره الإخاء ، ووسائله المودة ، والمحبة ، والوفاء ، ابتعد به

---

(١) فصلت : ٣٣ ـ ٣٥
(٢) النحل : ١٢٥
(٣) آل عمران : ١٥٩
(٤) النساء : ١١٢
(٥) المائدة : ٩١
(٦) المائدة : ١٠٠
(٧) يونس : ٢٦
(٨) المائدة : ٣٩
(٩) النساء : ١٤٨
(١٠) الحديد : ٢٣
(١١) النحل : ٩١
(١٢) الاسراء : ٧

القرآن عن الخبث ، والمكر ، وخفايا الادراك السيء المضمر ، والسلوك الحاقد الخفي ، أليس القرآن القائل « **ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة . . .** » (١) ، اجتماعية إنسان القرآن اتجهت به إلى تحقيق اسمى نماذج المجتمعات العامة (بمعنى الأمة والدولة) بناء على تنشئته تنشئة سليمة ، وتدرج اجتماعي صائب ، وتصعيد رصين قوامه : الكفاءة ، والعمل : « **قل هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب** » (٢) وقوله : « **إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا** » (٣) وقوله : « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم** » (٤) وقوله : « **وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** » (٥) القرآن دعا إلى مجتمع العمل وفرق بين الفقير المحترف ، والعاطل بالهواية ، المتكاسل عن السعي ، وبين الفقير بالضرورة واستحالة القدرة على العمل ، فجعل لهذا حقاً في أموال المسلمين ، فكانت الزكاة ، وحقر الأول وحارب فيه روح التسول والتكاسل وكره فيه . والتقى القرآن هنا في تجريحه للتدرج الاجتماعي مع أحدث ما قال به عميد علماء الاجتماع سان سيمون ، حين أكد أنه في مجتمع اليوم والغد مجتمع التقنية والصناعة ليس هناك غير طبقتين ، طبقة العاملين بعضلاتهم أو عقولهم وطبقة العاطلين المعطلين لعضلاتهم وعقولهم أي طبقة المنتج لما يستهلك ، وطبقة المستهلك لإنتاج الآخرين ، كذلك القرآن حين قوله بأصالة « التراث » وأن الإنسان ابن بيئته التقى أيضاً مع أحدث النظريات وأرجحها في الانتربولوجيا التراثية والسوسيولوجيا القائلة بأولوية التراث ، وما علينا إلا أن نتأمل الآية : « **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع ، والأبصار والأفئدة لعلكم**

---

(١) الحج : ١١
(٢) الزمر : ٩
(٣) الكهف : ٣٠
(٤) التوبة : ١٠٥
(٥) النحل : ٧٦

تشكرون » (١) ؛ هنا نلاحظ تفوق التراث الاجتماعى على التراث البيولوجى فى تكوين الإنسان ؛ لم يكتف القرآن بتصعيد الإنسان اجتماعياً ، وبناء على قواعد رصينة عملية فى داخل المجتمع العام ، وإنما أعطى أيضاً أسساً ملهمة، لما يجب أن تكون عليه مظاهر السلوك والعلاقات ، فى المجتمعات العامة ، ولما فيه خير الإنسانية وسعادتها وتحقيق مجتمعها ،الأفضل والأخير وعلل «نظرية الأجناس» تعليلا بناءاً رائعاً . « **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** » (٢) (لم يقل لتتعصبوا) وقوله : « **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا** » (٣) حتى حين تتحول العلاقات إلى تنافر ، قد يؤول بها إلى أعنف صورة هى الحرب ، حدد القرآن المبادىء ولم يجعل الإنسان المسلم ينافر حباً فى المنافرة والإغارة كما كان الحال فى العصور الجاهلية ، حيث كان المجتمع يختنق تحت غبار خيول المغيرين وحماساتهم وصليل سيوفهم حباً فى الإغارة والسيطرة وإنما لهدف إنسانى ، ففرق بين الحرب الدفاعية عن كلمة الله لتكون العليا ، أى كلمة الحق والعدل ، والحرب الهجومية بغية الإغارة والنهب وإخراج المؤمنين من ديارهم . قال : « **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم** » (٤) ، وقوله : « **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها** » (٥) ، وقوله : « **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم** » (٦) وقوله : « **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ...** » . . (٧) هذا السمو وهذا الحرص على بناء المجتمع سليما ، واستغلال طاقاته فى البناء لا فى الحروب والإغارة، وتأكيد علاقاته التعاونية بما فيه رفعته ، والحد من العلاقات المتنافرة ، وحصرها ما أمكن ، والسمو بإنسانية الإنسان والتدرج بها نحو العالمية ،

---

(١) النحل : ١ / ٧ .
(٢) الحجرات : ١٣ .
(٣) يونس : ١٩ .
(٤) الممتحنة : ٨
(٥) الأنفال : ٦١
(٦) آل عمران : ٦٤
(٧) الحجرات : ٩ .

يصل بنا إلى النقطة الأخيرة من عرضنا هذا ، ونعنى بها مقارنة إنسان القرآن اجتماعياً ، بإنسان الأديان الأخرى(دون أن نناقض أحدهما بالآخر).
نقول مهما كانت موضوعيتنا فى إبراز أصالة القرآن على غيره فى التصوير للإنسان الاجتماعى فقد يتحفظ عليها بأنها وردت على لسان مسلم وبالتالى لا تخلو من النسبية . كذلك لو تركنا المعتنقين لدين آخر يقارنوا ، فهما كانت موضوعيتهم ، فهى لا تخلو من النسبية أيضاً ، لذلك سنترك لمحايد وضعى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء عالم عملاق من مؤسسى السوسيولوجيا الحديثة نعنى به «أوجست كونت »الذى نظر إلى كل الأديان بمنظار وضعى ، بعيدعن أى التزام روحى ، ليقارن، ولنقارن بالتالى على لسانه، يقول« كونت» فى صدد مقارنته وذلك فى مؤلفه الشهير« نسق السياسة الوضعية » (١) . أنه لن يشارك فى الحملة المفتعلة المسعورة ، ضد الإسلام فى الغرب ، دون معرفة بأعماق الحقيقة، وأنه لن ينساق كما انساق « ديديرو DIDEROT» فى حكمه على الإسلام إذ أن حكمه – على حد قول كونت – لا يخلو من التعنت ، وفى مؤلفه « محاضرات فى الفلسفة الوضعيــة » (٢) وهو لا يقل شهرة عن المؤلف السابق، يقول« كونت»: «إن تعاليم المسيح فاقت تعاليم موسى كما أن تعاليم الإسلام فاقت الجميع لما فيها من تمشى مع الطبيعة البشرية من الوجهة الواقعية والعملية»، وفى الجزء الثالث من نسق السياسة الوضعية ص ٤٧٠ وما يليها ، وفى الجزء الرابع من نفس المؤلف ص ١١٣ و ص ٥٠٥ إلى ص٢١٣؛ يؤكد كونت أولا أن القرآن بربطه للوحدانية بالواقع الاجتماعى ، ومحاولته تحديد الأبعاد عقلياً وعملياً وبصورة سريعة خلاقة ، وقوله بالحوار المباشر بين الخالق والمخلوق دون وسيط قد اختصر الطريق إلى الحالة الوضعية للإنسانية. ويعادل كونت غالباً «وضعية» « بعلمية » أى إلى الحالة العلمية للإنسانية ، وفى الجزء الثانى من نفس المؤلف ص ١٠٦ وكذلك فى مقدمة الجزء الثالث منه ، يرى كونت أن

---

(١) Système de politique positive, vol. II, p. 505 et 55

(٢) Cours de Philosophie positive, vol. IV p. 071 et 55

اجتماعية الإنسان فى القرآن تتجه به إلى الاستقرار فى الجماعة ، وبالتالى تترك له إمكانية التفتح على قضاياه الحقيقية ، قضايا تطويره وتكيفه ، مع متطلبات مجتمعه . ومن ثم جعلته يتحمل مسئولياته الدنيوية بجدارة ، وفى نفس الجزء الثالث هذا من نسق السياسة الوضعية ص ٤٧٩ وما يليها و ص ٥٦٠ يقول كونت : فى الوقت الذى كان الغرب المسيحى مشغولا بقضايا لاهوتية عقيمة تخدر العقل ولا تنشط ، كان العالم الإسلامى يتفتح على العلم ، والمعرفة والفنون وبالتالى أصل اجتماعيته جنباً إلى جنب مع روحانيته. ، إن التفوق الاجتماعى وأهميته فى التعاليم الإسلامية أهلت المسلم ليكون أكثر صلاحية من غيره اجتماعياً وأهلته للعالمية . حاول الإسلام أن يحد من سلبية القضايا التى يواجهها فكرياً ، وذلك بمناقشته الصريحة، وحينما نتكلم عن تقهقر الإسلام — المتحدث هنا دائما كونت — فإنما من الأولى أن نتحدث عن تقهقر المسلمين ، حين اشتغالهم بأمور ثانوية أبعدتهم عن تعميق تجاربهم الناجحة فى ماضى التاريخ ، وتكيفها مع طبيعة عصر اليوم عن طريق الاجتهاد العلمى فى واقع المجتمع ، ومعطياته الحالية ، بل هذا (أى الاجتهاد) ما ينصح به الإسلام . لقد سد الإسلام فراغاً كبيراً فى الميدان الاجتماعى بالنسبة لتطور الإنسانية — على حد تعبير كونت — وقدم الكثير ، وفاق ما قدمه ما قدمته بيزنطة، وركزت العبقرية الإسلامية نشاطها فى تنظيم المجتمع وحكمه وإدارته، وقالت بصدارة العلوم والفنون، فأكدت بذلك أصالة الإنسان اجتماعياً . وفى الجزء الرابع من نسق السياسة الوضعية ص ٥٠٦ وما يليها يأسف «كونت » لأن روح القرآن الاجتماعية لم تفهم منذ البداية من غير المسلمين ، وكان الحذر المسبق منها ، وبالتالى لم يحدث تفاعل إيجابى بين الإسلام والمسيحية، وحل بدلا منه تفاعل سلبى يعبر عنه هذا التطاحن المرير عبر القرون ، والإسلام باجتماعيته لا يبتغيه، إذ الصراع مع الأديان ليس من طبيعة الإسلام الاجتماعية، ويكرر «كونت» أنه كان من الخير للمسيحية ، والأجدى للإنسانية ، أن يترك الشرق للإسلام، وتتكامل الأديان كل فى نطاق وجوده ، ويترك للأصلح فرصة أوسع للامتداد وإذا به الآخر ، وذلك فى سبيل المصلحة المشتركة ألا وهى إسعاد البشرية.

الإسلام بتقويمه الصحيح لمعطيات الإنسان يعتبر فى طليعة المتجاوبين مع الاتجاه الوضعى (أى العلمى) المحقق للعقيدة العالمية . لقد ساعدت الإسلام فتوحاته ، اجتماعياً ، بقدر ما ساعدت الآخرين عن طريق الاحتكاك به ، على التطلع والنهضة — أرض الإسلام — يقول كونت — هى خير أرض للاتجاه الوضعى . الإسلام أكمل فى زمن بسيط عبر حلول عملية معقولة مالم تستطع الأديان الأخرى أن تكمله خلال قرون طويلة ، ومن الجزء الثالث ص ٤٧٠ نسق السياسة الوضعية ، نختتم مقالتنا على لسان كونت نفسه وحرفياً : « إن العبقرية الإسلاميـــة قلما تتعارض مع الحديث النهائى للدين الوضعى ، حيث إنها دائماً تتطلع متصبعدة نحو الواقع ، عن طريق اتجاهها العلمى ، وعقيدتها المبسطة » (١) ،وهكذا يمكننا أن نضيف إلى قائمة إعجاز القرآن من الوجهة الروحية ، والبيانية ، والفلسفية ، دلائل إعجازه من الوجهة الاجتماعية ، والإنسانية » .

***

(١) والنص هو :

«Le genie Islamique doit même être moins contraire [...] à l'avènement final de la religion positive comme ayant toujours tendu davantage vers la réalité, d'après sa croyance plus simple et sa direction plus pratique...» système de politique positive vol. II p. 470.